حركتا الشيخ عثمان بن محمد بن فودي
والشيخ محمد أحمد بن عبد الله المهدي
وآثارهمـــا

بقلـــم

الدكتور عثمان سيد أحمد اسماعيل

حركتا الشيخ عثمان بن محمد بن فودي والشيخ محمد أحمد بن عبد الله المهدي وآثارهما

بقلم

الدكتور عثمان سيد أحمد اسماعيل

(أ)

لاتزال نظرتنا لعالم الإسلام ولتاريخ الجماعة المسلمة تحدها القومية والشعوبية والإقليمية ، ولا تزال دراساتنا في التاريخ الإسلامي وعلى الخصوص في جامعاتنا التي أسست على الفكر الغربي والمنهجية الغربية ولما تتأصل بعد رهينة لتلك النظرة . يحدث هذا في حين أن مدارس التاريخ الإسلامي وعلى اختلافها تقوم على وسطية الرسالة المحمدية ، ومن ثم فإن اهتمامها بحركة التاريخ في إطار الزمان والمكان والحوادث إنما كان بالجماعة المسلمة كامتداد طبيعي بل وضروري لانتشار الدعوة وسيادة الرسالة الخاتمة الخالدة . ولم تكن تلك المدرسة ، وقد تحددت ركائزها الفكرية والمنهجية ، لتغفل ما يرتبط بعلم التاريخ مع ما شاء الله وقدَّر من علوم الاجتماع والإنسانيات والعلوم والصناعات ، وحتى الكوارث والتغيرات الطبيعية ، هكذا كان الطبري ، وهكذا كان المسعودي ، وهكذا كان ابن خلدون في تاريخه الذي اشتهرت ـــ وبحق ـــ مقدمته كخلاصة للفكر الإسلامي التاريخي والاجتماعي ، وكقاعدة لا تطال حتى الآن في الفكر الإنساني عامة ، في ما ذهبت إليه من تأصيل وتنظير لعلوم السياسية والتاريخ والنظم والاجتماع .

أثبتت تلك المدرسة أن منطلقات الجماعة المسلمة الأولى لم تكن كما نشأت فيه من جاهلية وقبلية وإقليمية وعرقية ، بل على مانشَّأها عليه الرسول ﷺ من دين الإسلام الحنيف . وهكذا كان بلال سيدا ، وكان سلمان سيدا ، وكان أسامة قائدا تتعفر أقدام الخليفة الصديق رضي الله عنه وهو يودعه إذ يذهب ليدافع عن الرسالة وعن الجماعة وعن البيضة . وهكذا كان العديد من الخلفاء والسلاطين والأمراء مع أن أمهاتهم أمهات أولاد ، مختلفات الأعراق والأحساب والأنساب ﴿إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾ الآية .

لولا ذلك لما كان فتح ، ولما كان انتشار للإسلام ولدار الإسلام داخل الجزيرة العربية نفسها بله خارجها . بل ولما كانت تلك الحركة المستمرة في انتشار الإسلام خارج حوزة الخلافة

أو الإمارات والدويلات المسلمة ، وبعيداً عنها أحياناً كثيرة . انتشار لاينفك يكوّن جماعات مسلمة ، وجماعات لاتفتأ بجهودها تواصل نشر الدعوة ، ثم تعمل جاهدة على تهيئة الأطر والظروف اللازمة لوجودها بصفتها مسلمة . لهذا كان انتشار الإسلام بهذه الصورة ، خارج نطاق ما تم للخلافة من حوزة وفتح ، أكبر رقعة وأكثر أناسيَّ مما كان في داخل الجزيرة العربية .

لماذا ؟ لأن هذه هي طبيعة انتشار الإسلام منذ أن كان ، منذ أيام الرسول ﷺ ، فلولا أن قوتل الرسول ﷺ والمسلمون الأوائل لأنهم قالوا ربنا الله ، وأخرجوا من ديارهم ، وتظاهرت القوى المعاصرة على حربهم ، لما كان قتال . ولهذا أيضاً يظل الجهاد فرضاً متى ما تهيأت له الأسباب .

إن انتشار الإسلام في إفريقية ما كان يخالف في جوهره وصوره انتشاره أيام الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام . دعوة للتوحيد ، وهداية لسنة رسول الله ﷺ تتواتر عبر الزمان والمكان ، يقوم بها أفراد عفوا بلا اتفاق ، أو جهاداً بالدعوة من أفراد أو جماعات وهم تجار عابرون ، أو علماء ومعلمون عابرون ، أو رحالة عابرون . وما كان السفر في الماضي بهذه السرعة وهذه الأساليب والوسائل التي نعدها اليوم ، وما كان العابرون ـــ ممن وصفنا من المسلمين بحكم تكوينهم وبحكم تلك الظروف ـــ إلا ويتصلون ويتعرفون بصور شتى بمن يعبرون ديارهم ، يقيمون بها بعض الوقت ، ويتعلمون لغاتهم وعاداتهم يجالسونهم ، ويؤانسونهم ، يعلمونهم مما علمهم الله ، ويسعون بينهم بما يعرفون ويستطيعون من خير وما عندهم من تجربة وحكمة في الطب ، وفي التجارة ، وفي الزراعة ، وفي التعليم ، وفي الإدارة ، وفي أساليب الحكم وسياسة البلاد والعباد .

وهكذا كانت الحركتان ، اللتان هما مدار هذا البحث جزءا من حركة انتشار الإسلام في إفريقية خارج دار الخلافة ، بلا فتح أو تدبير من قوى خارج الجماعة المعنية ، أو من خارج بلادها .

غير أننا وقد أشرنا إلى الطبيعة الأصيلة في انتشار الإسلام ﴿ ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ﴾ (سورة النحل : آية ١٢٥) الآية . نعود لنشير لوسطية عالم الإسلام جغرافياً واقتصادياً واستراتيجياً ، كانت هذه الوسطية عاملا فاعلا في انتشار الإسلام ولا تزال . وهنا أيضاً نعود لكتابات الجغرافيين المسلمين الأوائل لنجد أنها كانت ، بحكم الموقع وبحكم الفكر ، تجعل مركز عالمها دار الإسلام ، وتنطلق من نظرة شمولية للأرض ، والمناخ والإنسان . دار الخلافة جلباب ، وسطه جزيرة العرب ، وكماه يمتدان شرقاً في آسيا وغربا في مصر وشمال أفريقية إلى أقصى المغرب ، الكتب موسومة « البلدان » و« الأرض » و« الأقاليم » . هكذا كان الحال مع صاحبينا البغدادي والحموي ، وهكذا كان الحال مع صاحبنا الإدريسي والأفريقي وغيرهم . ولا

يخفى أن النظرة الإقليمية المناخية تفسر بوضوح أكثر من النظرة القارية أي القائمة على اعتبار القارة حركات انتشار الإسلام ، ولاسيما البلدين موضع دراستنا هذه .

إن بلاد سودان وادي النيل « تتاخم جزيرة العرب ، وبينهما أخدود هو البحر الأحمر ، ونوبة السودان امتداد لنوبة مصر ، وغرب بلاد سودان وادي النيل أبوابه من زويلة وطبرق وفزان . أما بلاد الهوسا بنيجيريا فهي متصلة بالساحل العربي في بلاد المغرب مع بلاد «الشنقيط» و«غانة» و «تمبكتو» و «صنغاي» وبلاد «الكانم برنو» ، وأبواب مشرعة إليها من مصر والسودان وبلاد شمال إفريقية .

يحدد المؤرخ الألماني « تشنر » في كتابه المنشور عام ١٩٤٤م عن تارخ الخلافة ما يسميه مواطن العرب في خرائط عدة ، وذلك كمفتاح لفهم وتتبع انتشار الإسلام ودولته ، وقد تبعه كثيرون في تقصي هذه الحقيقة مما يساعد كثيراً على فهم قيام الجماعات المسلمة في النواحي القاصية من قلب دار الإسلام ، ونشأة وطبيعة الدويلات فيها . من هؤلاء المستشرقين « هربك » و « لفتسكي » من « براغ » و « فيج أوليفر » مؤرخي التاريخ الإفريقي البريطانيين ، بينما ينفرد المؤرخ النيجيري بالتجنس ، البريطاني الأصل ، المسلم دينا : « عبد الله اسميث » الذي توفي في أغسطس ١٩٨٤م بأنه بحق أبو مدرسة التاريخ الإسلامي الإفريقي خصوصاً فيما يتعلق بتاريخ الخلافة العثمانية « الصكتية » التي أنشأها الشيخ عثمان ابن فودي وما يتعلق بالمصادر العربية الإسلامية في نيجيريا ، عليه رحمة الله . وهناك عديدون من المؤرخين السودانيين والنيجيريين من صناع مدرسة « عبد الله اسميث » ومن تلاميذها ، منهم من السودان المرحوم الأستاذ الدكتور محمد أحمد الحاج ، والاستاذ الدكتور عز الدين أحمد موسى ، والدكتور تاج السر العراقي ، ومن النيجيريين الأستاذ الدكتور سعد أبو بكر ، والأستاذ الدكتور مهدي آدامو ، والدكتور محمود تكر والدكتور يايا أبو بكر عليو ، كما أن من الملمين بالمخطوطات العربية الإسلامية أحمد محمد الكاني الهوسي الأصل السوداني الجنسية وغيرهم كثيرون .

(ب)

هاجر المسلمون لإفريقية « للحبشة » ، ولما يهاجر الرسول ﷺ للمدينة المنورة بعد ووجد الإسلام والمسلمون سبيلهم إلى بلاد النوبة المسيحية آنذاك قبل أن تنتهي الخلافة الراشدة بعد ، وأن مسجد دنقلا العتيق يعد بحق من أقدم المساجد الإسلامية فقد بني في ظل دولة نوبية مسيحية وهو دليل على انتشار الإسلام بلا فتح أو دعوة منظمة منذ العقود الأولى للإسلام وللخلافة . إن قصة رماة الحدق الذين أوقفوا جيش « عبد الله بن سعد » إبان فتح مصر وولاية « عمرو بن العاص » في خلافة عمر بن الخطاب عام عشرين من الهجرة ــ عند حده في شمال سودان

النيل تقابلها قمة معاهدة « البقط » (الاتفاق) التي تؤكد حرية حركة المسلمين ببلاد النوبة بمملكة علوة المسيحية ، وتؤمّن سلامة مسجدهم الذي أقاموه في « دنقلا » عاصمة تلك المملكة ، وفي جزيرة لبب (جزيرة الأشراف) قريباً من « دنقلا » تلك ولد « محمد أحمد بن عبد الله المهدي » في ٢٧ رجب من عام ١٢٦٠هـ (١٨٤٤/٨/١٢) . أما الشيخ « عثمان بن فودي » فقد ولد قبل ذلك بما يقرب من قرن من الزمان في يوم الأحد ٢٩ صفر عام ١١٦٨هـ في « ماراتا » في « غوبر » من بلاد الهوسا من « نيجيريا » من أسرة علماء من الفلاتيين عريقة في العلم ، بل إن كلمة فودي بالفلاتية تعني المعلم . والفلاتيون ولاسيما أسر العلماء منهم قد اختلطوا بالعرب والطوارق وبالبربر ، وربما باليهود أيضاً ، كما ذكر محمد بن عثمان بن فودي في آخر كتابه « إنفاق الميسور في بلاد التكرور » .

تنتشر في أوساط الهوسا أسطورة ترجع أصل مؤسسي ممالك الهوسا السبع إلى بغدادي اسمه « بايزيد » ينطقونها « باياجدا » والأسطورة تحكي أنه قتل ساحر ثعبانا في بئر معروفة في « دورا » وتزوج الملكة وولد منها سبعة أبناء أصبحوا حكام ممالك الهوسا السبعة الأصلية وهي « كانو » . « ورانو » ، « وكتنة » ، و« زكرك » ، و« دورا » و«غوبر » ، و«غارن قبس » . ولعل في ذلك إشارة إلى ماكان يحدث بالفعل من اتصال بين العرب المسلمين والحكام وغيرهم من أسر الهوسا والفلاتي الحاكمة وغير الحاكمة .

موطن المهدي : سودان وادي النيل وهو بلا شك الأقرب من موطن الرسالة ، والألصق بدار الإسلام تاريخا ، وأهله أكثر انصهارا في الحضارة العربية الإسلامية دينا ولغة ، وإلى حد كبير أعراقا ،وليس هنا مجال شرح هذا إن كان يحتاج إلى شرح . ومع ذلك فإن ظهور الجماعات الإسلامية الكبيرة ثم الدويلات والممالك الإسلامية يبدو أنه كان أسبق في سودان المغرب وبلاد الهوسا والكانم برنو منه في بلاد سودان وادي النيل برغم التقارب الزمني في ذلك . ولعل مرد ذلك إلى أن الإسلام لم يأخذ شكله السياسي في سودان النيل ليسير انتشاره حول الممالك النوبية المسيحية ، التي كانت تنتقل عواصمها للداخل حتى انتهت « بسوبا » ، وهي الآن جزء من الخرطوم العاصمة ، ولعدم ظهور الجماعات القوية المتماسكة سياسيا والطامعة في السلطان حتى ظهور السلطنة الزرقاء « بسنار » في مطالع القرن السادس عشر الميلادي . ثم لاشك أن التعامل بين المسلمين والمسيحيين ككتابيين يختلف عن التعامل بين المسلمين في سودان المغرب وبلاد الهوسا والكانم برنو ، وبين حكامهم وأهلهم من الوثنيين . وإن المصادر لتؤكد وجود مساجد ومناطق تجمع مسلمين بمملكة غانا منذ القرن الثامن الميلادي أي الثاني من الهجرة . وعلى أية حال فإن الممالك المسلمة بغانا وصنغاي والكانم برنو كانت موجودة في حوالي القرن الحادي عشر الميلادي الرابع الهجري ، وفي ممالك الهوسا ومنها غوبر التي ولد في إحدى مدنها الصغيرة « ماراتا » الشيخ عثمان بن محمد بن فودي .

قامت تلك الممالك وعلى رأس بعضها ملوك مسلمون حوالي أواخر القرن الخامس عشر . أما في بلاد سودان وادي النيل فقد تأكدت غلبة الإسلام السياسية بظهور ممالك المسبعات « وتقلي » في غرب السودان ومملكة الفونج بسنار في وسط وشمال السودان في القرنين الخامس عشر والسادس عشر .

لعلنا قد لمسنا التجانس والتباين بين الأرضيتين اللتين قامت فيها الحركتان من ملاحظاتنا العابرة فيما تقدم ، والصلة بعالم العرب والاسلام ، وانتشار الإسلام : جماعات ، ومعالم : كالتجمعات السكنية والمساجد ، ثم ظهور الدويلات والممالك ، مع حركة في ظل دولة مسيحية تتآكل مع الزمن وينحصر سلطانها على ضفاف النيل شمالا وقريبا منه ، وحركة أخرى في عالم وثني ذي قوة سياسية واقتصادية واجتماعية لم تكن لتنتهي كما انتهت الممالك المسيحية في السودان بلا مواجهة تذكر ، بل كان لابد من هجرة وجهاد . وهكذا كان كتاب « بيان وجوب الهجرة » لعثمان بن محمد بن فودي هو نقطة التحول الفكري في كتاباته بل وفي حياته وحياة جماعته ومستقبلها . لقد كتب قبله الكثير ، وكتب بعده الكثير ، لكن ذلك الكتاب (الذي حققه وطبعه الأستاذ الدكتور فتحي المصري) هو البيان المنهجي للخروج عن مجتمع الكفر والتخليط وعلماء السوء والشعوذة لمجتمع جديد يقوض أركان ذلك المجتمع ، ويبنى على أنقاضه دولة مسلمة هي دولة الخلافة العثمانية « الصكتية » تلك الخلافة التي لم تنته إلا في مطلع القرن العشرين من الميلاد على يد الإنجليز . ولقد كان لمهدي السودان أيضا هجرته ، وكانت له كتاباته في منشوراته ، الحاثة على الهجرة والجهاد . وعلى الرغم من أن حركته قد أعقبت حركة ابن فودي بأقل من القرن بقليل فقد انتهت دولة المهدية أيضا على يد الإنجليز عند مشارف القرن العشرين .

(جـ)

وإن الظاهرة الجديرة بالاهتمام حقا في حركة عثمان بن محمد بن فودي هي كونها حركة جهاد لإخماد البدع وإحياء السنة ، قام بها عالم جليل ، ابن عالم جليل مع مجموعة من العلماء ، منهم أخوه الشيخ عبد الله بن فودي وابنه الخليفة السلطان الشيخ محمد بل بن عثمان ، ومن قبلهم شيوخه الذين ذكرهم في مؤلفاته كما ذكرهم الشيخ عبد الله بن فودي في كتابه المنشور المترجم إلى اللغة الانجليزية المسمّى « إيداع النسوخ من أخذت من الشيوخ » وكما تحدث عنهم ، وعن العلماء ببلاد التكرور : السلطان محمد بل في كتابه المشار إليه آنفاً « إنفاق الميسور في تاريخ بلاد التكرور » .

لابد هنا أن يرد في الخاطر ماكان يحدق بالعالم الإسلامي كله في تلك الفترة من مشكلات من الداخل وذلك بطغيان البدع والبعد عن سنة الرسول ﷺ ،ومن الخارج بواسطة الهجمة

الاستعمارية الشرسة على بلاد المسلمين في آسيا وإفريقية ، وتفشّي العادات الوافدة مع الاحتكاك بالغرب ، وفلول الدولة العثمانية المحتضرة : حضارة وتجارة ، مثل : عادة شرب الخمور وشرب التبغ والزيف في المعاملات والحيف والطغيان والتفسخ السلوكي . لكن الذي لم يخطر على بال الكثيرين هو أن المواجهة في العالم الإسلامي كله كانت واحدة مع تقارب في الزمن وتباعد في المكان . وهكذا تشكل الحركة السلفية بالجزيرة العربية ، وحركة دان فودي ببلاد الهوسا ، ثم حركة المهدي بالسودان ، تشكل هذه الحركات الثلاث جزءا هاما من منظومة تميزت عن انتفاضات جماعة المسلمين في أماكن عديدة من آسيا وإفريقية — برغم البعد — بفكر واحد ، وفي اتجاه واحد ، ولسبب واحد . فالفكر هو إحياء التوحيد والسنة ، والاتجاه هو تحرير الجماعة من نقائضها أولا ثم من أعدائها من الداخل والخارج ، والسبب هو القيام بواجب الدعوة والرسالة ، (فرض الكفاية) ، والذي يصبح فرض عين عندما يتكالب على الأمة المسلمة أعداؤها ، وعندما يغطي جوهر عقيدتها الجهل والضلال .

ما كان الشيخ عثمان بن فودي يهيئ نفسه لملك أو سلطان ، ولكنه نذر نفسه وبوضوح من أول أيامه للعلم والتعليم بعد أن حفظ القرآن ، وتعلم الحديث والفقه ، واطلع على مؤلفات الكثيرين من كتب السلف ، واحتك بالكثيرين من علماء بلده وعصره مباشرة وفكرا . وهنا أيضا نلفت الأنظار إلى أن عالم غرب إفريقية كان يعج بالعلماء والمؤلفات ، وكان على اتصال دائم بعالم الإسلام في المغرب ، وفي مصر ، وفي الشام ، وفي الحجاز ، وأن علماء مثل « المغيلي » ، « وأحمد بابا التمبكتي » ، و « السيوطي » ، كانوا على اتصال بعلماء تلك المنطقة ، وقد ذكر العديد منهم أحمد بابا في كتابه « كفاية المحتاج » وإن ما وجد من مخطوطات ومطبوعات في نيجريا يؤكد بوضوح هذه الحقائق ، بل إن ما وجد بها من تآليف للشيخ عثمان بن فودي . وأخيه الشيخ عبد الله ، وابنه محمد بل ، وابنته الشاعرة أسماء ، يقارب الثلاثمائة مؤلف ، أغلبها الغالب باللغة العربية ، وبعضها بلغة الفلاتي ، وبعضها بلغة الهوسا ، وفيها النثر البليغ ، وفيها الشعر البديع . هذه حقيقة جديرة بالتأمل والاعتبار .

فحركة الفكر والتأليف الإسلامي العربي في تلك الفترة — وباعتبار جودة تلك المؤلفات فكرا وأصالة وأسلوبا ولغة — تفتح بابا واسعا لدارس حركة ازدهار الفكر الإسلامي ، والتأليف العربي في وقت يعده المؤرخون وقت جمود وركود . حتى ما أشاعه الكثيرون عن قفل باب الاجتهاد لم يكن مقبولا عند الشيخ عثمان وأساتذته وتلاميذه إذ قال ما معناه « إنه بعد الكتاب وما تأكد من السنة فالعلماء السابقون رجال ونحن رجال (لقد تهيأ لي بفضل الله أن أطلع على العديد من تلك المؤلفات قرابة ستة الأعوام وهي لاشك عندي من أهم كتب التراث العربي الإسلامي بصورة عامة ، والفكر المالكي بصورة خاصة ، والاجتهاد . وهي جديرة بالرعاية والعناية

والدراسة الجادة ، فقد أسهموا كثيرا في الفكر الإسلامي ، وفي السياسة ، وفي النظم الإسلامية ، وفي المعاملات مع غير المسلمين ، وفي الأدب العربي) .

كانت بداية الحركة التعليم ونشر السنة لإخماد البدع وتخليص العقيدة والسلوك الإسلامي من التخليط والشعبذة . وكان الشيخ « عثمان بن فودي » يجوب بين الجماعات المختلفة ، ويتحدث بلغات مختلفة ، منها العربية والفلاتية والهوسا وغيرها من اللغات . كان يدعو بين الرجال والنساء ، وعلى اختلاف قطاعات المجتمع ، البدو وأهل الريف والحضر ، والرعاة والزراع والطلبة والعلماء والتجار ورجال الدولة . عرف بالتقوى والصلاح مع غزارة العلم والمعرفة ورحابة الصدر وسعة الأفق والتأني الحكيم ثم العزم الحاسم المتوكل على الله . يقول عنه ابنه محمد بل في كتابه « إنفاق الميسور » .

إنه نشأ عفيفاً متدينا ، ذا خلال مرضية ، نسيج وحده . انتهت إليه الأمانة ، وضربت إليه آباط الإبل شرقا وغربا ، وهو علم العلماء ورافع لواء الدين . أحيا السنة ، وأمات البدعة ، ونشر العلوم وكشف الغموم . بهر علمه العقول . جمع بين الحقيقة والشريعة . فسر القرآن سنين عديدة ، يحضره كبار العلماء والصلحاء ، عالما بقراءاته وفنونه من بيان وأحكام وناسخ ومنسوخ . مع إمامته في الحديث وفقهه في غريبه ورجاله وفنونه ، وفي أصول الدين ، والذب عن السنة ، ودفع الاشكال ، قائما بالحق ، صحيح النظر ، متدربا في تعليم الغوامض . إماما في النقول العقلية ، متعبدا ناسكا . تصدر للتدريس وبث العلم فملأ القطر المغربي معارف وتلاميذ . يفوق أهل زمانه عندما يقول . وكان حامل لواء التحصيل ، وعليه مدار الشورى والفتوى ، معظما عند الخاصة والعامة ، مجددا على رأس هذا القرن ، بليغا ، خطيبا ، شاعرا ، فصيحا ، فاضلا ، حسن الخلق ، جميل العشرة ، كريم الصحبة ، محققا ، شديد العارضة ، مقطوعا بولايته وقطبانيته .. » .

ولنا أن نمعن في هذا النص ، في أسلوبه ولغته ومحتواه كصورة لأدب تلك الفترة وفكرها ، فضلا عن دلالاته على شخصية الشيخ ومكانته وعلمه . ومهم أن نلتفت إلى رؤية الناس له كمجدد القرن وهذا من فكر أهل السنة ، ثم الحديث عن ولايته وقطبانيته وهذا من فكر المتصوفة . ومهم أيضا أن نشير إلى أن بعضهم وقد عرف قدره ورأى انتصاراته بعد بدء الجهاد وإقامة الخلافة ، كان يحسب أنه المهدي عند نهاية القرن ، ويشير إلى أوصاف للمهدي وجدها الناس في « محمد أحمد بن عبد الله المهدي » في السودان . يورد محمد بل ذلك قائلا « وأخبرتهم بما بشرهم به من قرب ظهور المهدي ، وأن جماعة الشيخ طلائعه ، ولا ينقضي بإذن الله في الجهاد حتى يفضي إلى المهدي . « فسمعو واستبشروا ..» ويحدثنا محمد بل عن مدار تعليم أبيه قائلا إنها كانت تدور على خمسة أقسام :

القسم الأول :

ما فرضت به الشريعة وهي الأصول والفروع الظاهرة والباطنة .

القسم الثاني :

في الحث على اتباع سنة رسول الله ﷺ .

القسم الثالث :

في رد الأوهام التي توهَّمها الطلبة (وهؤلاء قد شغلوا بعلم الكلام) « فشاع عند الناس أن من لم يشتغل بالتوحيد على النمط الذي يقررون فهو كافر وأشاعوا أن عوام المسلمين لا تؤكل ذبائحهم ولا يناكحون مخافة أن يكونوا لم يعرفوا التوحيد ، وابتلاهم الله بانتهاك حرمة خاصتهم أيضاً فتناولوا فقهاء وقتهم من أهل العلم والدين ومن هم على سبيل المهتدين » .

القسم الرابع :

في رد البدع الشيطانية ورد العوائد الرديئة .

القسم الخامس :

في بت العلوم الشريعية وتحديد المشكلات فيها والإفادة بالغرائب والنوادر في العلوم .

وهكذا كان الشيخ يسعى بين قومه ليقوم عقيدتهم وسلوكهم ، ولم يمض به وقت كبير في جو مثقل بحركة علمية كبيرة وحركة اقتصادية واجتماعية عامة حتى كثر أتباعه وأحبابه ، وحتى أثار ذلك اهتمام أولي الأمر من أهل السلطان ومن تبعهم بما في ذلك بعض العلماء الذين سماهم الشيخ علماء السوء لضلوعهم في ضلالة الجهلة وفساد الحكام . ولم يكن غريبا في تلك الظروف أن تكون مواجهة مع السلطة وأتباعها يمتحن فيها الشيخ وجماعته بعد أن حاولوا معه أسلحة الترغيب والتودد ثم أسلحة التهديد والإرهاب . يذكر (محمد بل) أن أعداءهم ــ أجمعوا كيدهم على نصب القتال بينهم وبين الشيخ ــ لا يشكون في أن الدولة لهم لما يرون من ضعف أتباعه من المقاتلة فاجتمع أمرهم على زجر الدعاة إلى الله ومنعهم من الوعظ وأمر كل واحد أن يرجع إلى ما وجد عليه آباءه وأجداده ، فلم يرعنا إلا **إنذار** (**أمير غوبر نافات**) لثلاثة أمور :

١ ــ لم يرض لأحد أن يعظ الناس إلا الشيخ وحده .

٢ ــ لم يرض لأحد بالإسلام إلا « وارثه » من آبائه ومن لم يرث الإسلام فليعد إلى ماوجد عليه آباءه .

٣ ــ وألا يتعمم أحد بعد اليوم ولا تضرب أمرأة بخمارها على جبينها .

« وهذا إنذار في الأسواق » ويشاء ربك أن يموت (نافات أمير غوبر) بعد ذلك بقليل لكن خلفه كما يسجل محمد بل « غزا قرية من قرى الإسلام على حين غفلة من فقهائها وقرائها في نهار رمضان وهم صائمون ، ونهبوا أموالهم وأسروا ذراريهم وأخذوا يفترشون الكتب والمصاحف ، ويحتطبون الألواح فيوقدون بها ويستهزئون بأهل الإسلام » .

مرة أخرى لابد من الإمعان في هذا النص جملة وتفصيلا ، فلم يكن الإسلام قد انتشر ، وكان ينتشر بفضل نشاط الشيخ وتلاميذه فقط . ومن الملفت : أنه كان يشير إليهم بالإخوان ، ويدعوهم بذلك في مؤلفاته مثل « نجم الإخوان » « وتنبيه الإخوان على أموال أرض السودان » و « تنبيه الإخوان على جواز اتخاذ المجالس لتعليم النسوان علم فروض الأعيان من دين الله الرحمن » وغيرها لكن هذا النص يشير إلى التغيير في « الكيف » في « الجوهر » فقد أصبحت جماعة الشيخ من الكثرة والتميز في سلوكها وتوجهاتها بما مازها وثبتها ووثق من عرى صلاتها بعضها ببعض ، وجعلها تعيش في مجموعات متميزة ، بل في قرى خاصة بها أولا ثم ثانياً ما جعل السلطة وأعوانها يلجأون إلى ما لجأوا إليه من قهر وتعد لوأد ما أصبح حركة عارمة ، وهيهات . يذكر « غداد بن ليما » في كتابه « بسط الفوائد » أن من طبقة العلماء من طبقة الشيخ آنذاك كان حوالي مائة وخمسة علماء ، وأن من الطبقة التي تليهم كان هناك (مائة وخمسة وسبعون عالما) ومن طبقته هو (مائة وخمسة وأربعون عالما) هذا خلاف مالم يذكره من الشيوخ والطلبة والصلحاء » .

تلك كانت بداية تحول الحركة من دعوة إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة إلى جماعة ترى الهجرة بدينها واجبا ، فكانت رسالة الشيخ لإخوانه وأتباعه في كتابه « بيان وجوب الهجرة » ، ولكن ذلك كله لم يحم الشيخ وأتباعه من البغي والعدوان فكان الجهاد فرض الكفاية فرض عين على الشيخ وأتباعه ، وتتابعت انتصارات الشيخ وعده معاصروه وأتباعه من الخوارق إلى أن تأسست الخلافة العثمانية الصكتية » .

يقول « بل » عن موقفهم من حكام ديارهم « إنه لما علمنا انقطاع حبال الأمانة بيننا وبينهم ، وقد أعانهم على عداوتنا جميع من كان على مشاركتهم من السودانيين والطوارق ، ولم يبق لنا ملاذ وملجأ في ملوك هذه البلاد لتضافرهم على عداوتنا وتعاونهم على ذلك رغبة منهم في استئصالنا اجتمعنا وتشاورنا في أمرنا وقلنا : إنه لا يتأتى للناس أن يكونوا كمًا مهمًلا ، من غير وال ، فبايعنا الشيخ على السمع والطاعة في المنشط والمكره ، فبايع هو على الكتاب والسنة ليلة الخميس ..» .

هكذا أصبح الشيخ أميراً للمؤمنين وقاد جهاده المظفر الذي كان ولا يزال له الأثر البالغ في تاريخ الإسلام عامة وفي تاريخ بلاد الهوسا واليوربا وما أصبح فيما بعد « نيجريا » الفدرالية

التي نعرفها اليوم والتي يشكل المسلمون أغلبيتها الغالبة . وقد كان الشيخ وأتباعه يتبعون في دعوتهم خطى الرسول ﷺ ، وخطى الخلفاء الراشدين عليهم رضوان الله ، بوعي عميق ونية صادقة ومعرفة دقيقة لتفاصيل السيرة النبوية والخلافة الإسلامية وبتوفيق من الله عظيم .

إن أدب تلك الفترة المعاصر لها ــ والموجودة بحمد الله بين أيدينا ــ وكذلك أسماء المؤلفات كتبا كانت أو رسائل أو مكاتبات : شعرا ونثرا ومن متونها كل ذلك يؤكد الانتماء العميق والحميم للإسلام ، والتشبع بروح الجهاد والغزو والاستشهاد في سبيل الله ، والارتباط الواعي بسيرة الجماعة المسلمة لتحقيق بعث سليم وتجديد قويم . وهكذا تتابعت خطوات الشيخ عثمان ، بعد أن أخذ البيعة ــ في تنظيم أمور الجماعة ، وتوالت بحمد الله الانتصارات ، وازدادت أعداد الجماعة ، وكثر المنحازون لها ونفرت السلطات الحاكمة آنذاك رويدا رويدا من أنصارها وقواتها .

في ذات الوقت أخذ الشيخ وجماعته يترجمون عملهم وأفكارهم إلى واقع ملموس فقامت الخلافة الإسلامية العثمانية الصكتية كدولة إسلامية ، بكل ما عرف عن الدولة الإسلامية من نظم أساسية ، فكانت الخلافة القائمة على البيعة ، وكان الوزراء والأمراء والعمال والقضاة والمحتسبون . ولم يرض الشيخ وجماعته أن يرتحلوا لأية من عواصم حكام الهوسا السابقين ، فقد كانت بالنسبة لهم دار كفر وآثروا أن يشيدوا عاصمتهم ، فأسسوا مدينة « صكت » وهي عاصمة الولاية الغربية من ولايات شمال نيجريا الآن ، وقد سميت الولاية باسمها . ومن شروح تلك التسمية أنها سميت صكت لأنها « صكت الأعداء صكا » ولحماية حاضرة الخلافة الفتية أقيم رباط على مقربة منها في « ورنو » . وكان أول حاكم لورنو « محمد بل » بن الشيخ عثمان وخليفته ومن مؤلفاته رسالته في « الرباط والحراسة » . وقد أجاز الشيخ استعمال مصطلحات الحكم الهوسية المعروفة لدى غالبية الجماعة فكان أمير ورنو يعرف بـ « مي ورنو » .

ولا تزال صكت « عاصمة الخلافة العثمانية » عاصمة للإقليم المسمى على اسمها ، كما أن حفيد الشيخ عثمان يقطن هناك وكذلك الوزير ، ويعرف خليفة الشيخ الآن ، بعد أن سقطت الخلافة على أيدي البريطانيين عام ١٩٠٣م ، باسم « سركن مسلمي » أي رأس المسلمين . ولا يزال يتمتع بمكانة كبيرة في نيجريا كرمز لوحدة المسلمين ومكانتهم ، وهو بهذه الصورة صاحب المكانة الأولى بين المسلمين في كل نيجريا ، على اختلاف ولايتها وقبائلها . ولا تزال بيوت الإمارة قائمة ، والأمراء يتسلسلون إلى بداية الخلافة العثمانية الصكتية . ومرد ذلك أن البريطانيين الذين أفلحوا في إسقاط الخلافة وقتل الخليفة الطاهر ــ وقد استشهد في « برمى » وهو في سبيله شرقاً للاتصال بالسودان ــ لم يفلحوا في طمس معالمها .

سقطت الخلافة العثمانية الصكتية شكلا عند احتلال بريطانيا لها في مطلع القرن العشرين عام ١٩٠٣م ، بعد أن تحوطتها قواتها من الجنوب والغرب والشمال ، كما كانت بريطانيا قد

احتلت مصر عام ١٨٨٢ واحتلت السودان ١٨٩٨ في وقت كانت فيه كل شمال إفريقية تقريباً قد سقطت لفرنسا التي توغلت قواتها في وسط إفريقية متجهة شرقا لتشاد (الشط) ولجنوب السودان ، وكان ذلك التسابق الجنوني بين الإنجليز والفرنسيين والبلجيك لاحتلال المناطق الهامة في جنوب بلاد سودان وادي النيل ، والمنتهي بحادثة فاشودة المشهورة .

سقطت الخلافة مجاهدة ولم تلق سلاح المقاومة بعد سقوطها تماما كما لم يُلق أنصار المهدي سلاح المقاومة بعد هزيمة كرري . وكان الخليفة ــ الشهيد الطاهر ــ يتجه شرقاً ليلتقي بالأنصار وقد كان للمهدي أنصار من أسرة الشيخ عثمان بن فودي وأتباعهم بقيادة « حياة بن سعيد بن محمد بل » الذي كان على اتصال بالمهدية بالسودان ، وكان ممثلا لها في الغرب أي في شرق الخلافة الصكتية ، حيث اتجه السلطان الشهيد .

لم يواجه البريطانيون دولة قد انهارت دعائمها بالاحتلال وهزيمة الجيوش ، أو شعباً فقد الثقة في نفسه وفي عقيدته ، بل وجدت عكس ذلك تماماً . وجدت الإدارة تحت الوزير والأمراء متماسكة ومتفاعلة برغم الهزة الكبيرة التي واجهتها ، ووجدت الشعب يحتمي في دينه وفي عقيدته ، ويتوب إلى الله في محنته مفسراً كل ما حدث بمشيئة الله وقدرته ، مقتنعاً بأن ما تم محنة وابتلاء ، وأن العلو سيكون لكلمة الله ، وستدور على البغاة الدوائر . وهكذا تعكس المصادر الحالة التي كانت الجماعة المسلمة فيها ، والوضع الذي يواجه البريطانيين فكان لابد أن يذعنوا له ، فأمنوا الوزير على احترام المسلمين وعقيدتهم وشعائرهم ، وارتضوا أن يتعاملوا مع الوضع الإداري ، الوزير والأمراء كما وجدوه ، وإن ما عرف بنظرية « الحكم غير المباشر » الذي طبقه الإنجليز في « نيجيريا » وفي « السودان » وفي « الهند » من قبل ، ونسب « للوقارد »لم يكن في الواقع إلا اعترافا من البريطانيين بما وجدوه ، وأن غيره سوف يكلفهم الخسران المبين . لقد تمكنت العقيدة بحمد الله من فكر الجماعة وقلوبها ، وتمكنت نظم الخلافة من واقع حياة المجتمع وصهرته فيها . إنه ذلك الواقع الذي ظل يلاحق البريطانيين حتى استقلت نيجيريا عام ١٩٦٠م .

ما من شك في أن فترة الاستعمار البريطاني ، التي مهد لها وارتبط بها الزحف التبشيري والثقافي الغربي ، وأن الطغيان العسكري والإداري والتعليمي الذي لازم تلك الفترة قد أعاق نمو وتطور المجتمع النيجيري المسلم . وما من شك في أن سياسات البريطانيين لتثبيت الإقليمية والقبلية والعرقية في نيجريا قد أعاقت انصهار النيجيريين في أمة واحدة ، وأبطأ ــ ولا يزال ــ من اكتمال وحدتها القومية سياسياً وثقافياً تماماً كما فعل في السودان . لكن الذي لاشك فيه ــ أيضاً ــ أن حركة دان فودي المظفرة التي أقامت الجهاد بعد أن أحدثت ثورة عقائدية وثقافية وسلوكية واجتماعية ، وأقامت الدولة خلافة إسلامية أحيت التراث وجددت الدين ، وامتدت لِمَا يقرب القرن من الزمان ، وجمعت تحت راياتها كل بلاد الهوسا والنفي وجزءاً كبيراً من بلاد اليوربا ، وقد جاءت في أوانها ، في وقت كان مفترق طرق ــ بحق ــ لمستقبل ذلك القطر

الكبير الغني في غرب إفريقية ، عند هجمة الاستعمار والصليبيين . وإنه « الله » الحسيب المقيت الذي هيأ لتلك الحركة من القيادة والرجال والأسباب ما مكنها من تملك ناصية الأمور في تلك الفترة الحرجة لتؤكد وتعمق الهوية الإسلامية بين الشعب النيجيري من الهوسا والفلاتي والنفي واليوربا وغيرهم ، لقد وفق الله الشيخ وجماعته وتابعيهم وأبناءه إلى صب التيارات المتصارعة في جداول الدعوة وقوالبها ــ اجتهادا وجهادا ــ في تنقية العقيدة وتطبيق الشريعة ، وتخليص الجماعة وتوحيد الأمة .

حتى اللغة العربية كانت سيدة اللغات ــ هناك آنذاك . ولا يزال لها من الجذور العميقة في المجتمع النيجيري واللغات النيجيرية المختلفة ــ ولاسيما الهوسا والفلاتى وإلى حد ما اليوربا ــ ما يمكنها « أي اللغة العربية » من أن تستعيد مكانتها ، فهي لغة القرآن والإسلام ، ولغة أهل الجنة عند المسلمين ، وهم الغالبية الغالبة في كل نيجيريا . لقد تمت « أسلمة » تلك اللغات ــ إن صح هذا التعبير ــ بفضل حركة ابن فودب ، وما عممته من الكلمات والتعابير والمصطلحات العربية الإسلامية ، وما نشرته من خلاوي القرآن ومجالس العلم والمعلمين ، وما حققته من رفع شأن « المعلمين » و « المؤدبين » في المجتمع ، حتى أصبحت كلمة « معلم » وكلمة « مؤدب » إشارة لمكانة مرموقة بين الناس . ومع اللغة العربية انتشر الحرف العربي كأهم حرف وأوله للكتابة باللغات الأخرى « كالفلاتي » و « الهوسا » « واليوربا » « والنفي » وعدلت الحروف العربية لتلائم تلك اللغات ، وعرف ذلك بالحروف العجمية ، تماما كما حدث من قبل بالنسبة للفارسية ، والأردية ، والتركية ، والعثمانية . يذكر الأستاذ الدكتور « شيخو أحمد سعيد غلادنت » في مؤلفه « حركة اللغة العربية وآدابها في نيجيريا » .

١ ــ قامت المدارس القرآنية بعمل مهم في نشر الثقافة الإسلامية في نيجريا ، كما قامت بمجهودات كثيرة في مجال محو الأمية .

٢ ــ يرجع الفضل الأكبر في نشر اللغة العربية في نيجيريا في القرن الماضي إلى الحركة الثورية الإصلاحية ، التي قام بها الشيخ « عثمان بن فودي » .

٣ ــ ازدهرت اللغة العربية في القرن التاسع عشر ووصلت إلى مستوى عال في نيجيريا ولا يقل مستوى بعض المؤلفات في تلك الفترة عن مستوى الكتب التي ألفت في الفترة نفسها في البلاد العربية .

ولا ينبئك مثل خبير ، فالمؤلف كان مديرا لجامعة « صكت » وكان قبلها عميدا لكلية اللغة العربية والدراسات الإسلامية « بايرو بكنو » والشاهد أننا لانجد حتى الآن فيما عرفناه عن المؤلفات والعلماء والمؤلفين في بلاد سودان وادي النيل قبل القرن العشرين ما يماثل أو يقارب

ما وجدناه من ذلك في بلاد الخلافة العثمانية الصكتية ، وما ندري قد تثبت الأيام غير ذلك والله أعلم .

وبعد ، فإن نيجيريا الآن أكثر البلاد الإفريقية سكانا وغالبيتها الغالبة مسلمة ، وهي جزء من العالم الإسلامي .

جاء الوقت الذي لاتحجب عنا فيه ــ نحن سكان العالم العربي الممتد من المحيط إلى الخليج ــ خارطة العالم الإسلامي الممتدة أبعد من ذلك بكثير ، والتي يشكل العالم العربي الإسلامي منها الجزء الأوسط والوسيط والأقل رقعة وسكانا ، برغم الأهمية البالغة التي يتمتع بها والتي تقلل منها نظرة ضيقة تباعد بين العرب في آسيا والغالبية الغالبة من المسلمين الآسيويين وبين العرب في إفريقية والغالبية الغالبة من المسلمين الإفريقيين .

ليتذكر المسلمون العرب في إفريقية أن لفظة « إفريقي » كانت أصلا انتسابا لإفريقية « وهي من بلاد العرب في شمال إفريقية » . كما أن نيجيريا الآن يتأكد فيها الانتماء للعالم الإسلامي ، والعقيدة الإسلامية ، والثقافة العربية الإسلامية ، والتراث العربي الإسلامي وتوجد بها بواكير نهضة إسلامية تؤكد أهمية الأثر الذي أحدثته حركة عثمان بن فودي . ويؤكد أهمية نيجيريا مكانتها من العالم الإسلامي ، زيادة على مكانتها وقوتها السياسية والاقتصادية وثرواتها وقوتها البشرية في إفريقية وفي عالم اليوم . ورحم الله الشيخ عثمان بن فودي ، والشيخ عبد الله بن فودي ، والشيخ السلطان محمد بل بن عثمان . فقد كانوا علماء أعلاما ورجال سياسة ودولة .

(د)

إن فكرة المهدي الآتي آخر الزمان ، ليملأ الأرض عدلا كما ملئت جورا ليست قاصرة على الدين الإسلامي فهي من صميم التراث الديني السامي . وجدت في اليهودية كما وجدت بعدها في المسيحية ومن بعدها في الإسلام . ولعلنا لانجافي الحقيقة إذا قلنا إن تسلسل الرسل والرسالات منذ آدم عليه السلام وإلى محمد ــ عليه أفضل الصلاة والتسليم ــ وهو آخر الأنبياء بلا جدال ، كان مما يدعم تلك الفكرة من قديم العصور ، خصوصاً ما ظل يحمله الأنبياء وتثبته الكتب السماوية من بشارات بأنبياء قادمين كانوا يأتون . أو لم يبشر عيسى بن مريم عليه السلام بمحمد ﷺ فيما يثبته إنجيل « برنابا » الآن ، وما جاء في القرآن ﴿ ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد ﴾ (سورة الصف : الآية ٦) .

حقا إن القرآن لا يبشر بمهدي، وأن الصحيحين من كتب السنة لا يفعلان ذلك أيضا. ولكننا نجد في غيرهما ذلك ، كما نجد في تاريخ الجماعة ذلك . أو لم يتحدث الأمويون عن « سفياني

منتظر » أو لم يكن للعباسيين مهديهم الخليفة « المهدي » بن الخليفة جعفر المنصور ؟ أو لم يكن للفاطميين مهديهم : « المهدي بن عبيد الله ؟ ثم أترى ننسى أن بعض الشيعة لايزالون ينتظرون « الإمام المنتظر » ذلك الذي قال فيه المعرّي ما قال .

يذكر الأستاذ الدكتور « محمد إبراهيم أبو سليم » في كتابه القيم « الحركة الفكرية في المهدية » أن مما كان معروفا ومتداولا في السودان إبان المهدية غير « الصحيحين » من كتب السنة ، سنن أبي داود ، وابن ماجة ، والترمذي ، وأن غيرها من الكتب كان منتشراً ، فمن كتب ابن العربي : « فتوحاته المكية » و « عنقاء مغرب » . وأن العديد من رسائل ابن إدريس كانت معروفة في السودان ، ولاسيما في وسطه وأجزائه الشمالية . وأن كل هذه كانت تتحدث عن المهدي المنتظر والمهديّة ، وأنه في جو تمكنت فيه الحركات الصوفية من المجتمع وفكره الديني كان ابن ادريس يسمي المهدي « الختم » — أحيانا — ولا ننسى هنا أنه قبل ظهور المهدي ظهرت — ومن أحد تلاميذ السيد أحمد بن إدريس — الطريقة « الختمية » . ولقد أشرنا من قبل في حديثنا عن ابن فودي إلى أن فكرة المهدي والمهدية كانت من صميم التراث والتوقعات الدينية في غرب إفريقية ، وأن الشيخ « عثمان بن فودي » قد تحدث عن ذلك نافياً عن نفسه أن يكون المهدي ، ومبشرا جماعته المنتصرة أنها طلائع المهدي ، وأن حركته لن تخمد حتى تقترن بالمهدية . بل إننا لا نبالغ إذا قلنا إن العالم الإسلامي كان يعيش أزمة نفسية حادة من جراء الهجمة الغربية الصليبية ، وما تلاها من هزائم عسكرية ، واحتلال وغزو فكري عنيف ، بعد أن عاش على ذكرى انتصاراته المتكررة على عالم الكفر ولا يزال ، وأن تلك الظروف القاسية كانت بلا شك تهيئ الكثيرين — وفي أجزاء عديدة من بلاد الإسلام — لمثل تلك الأفكار ، ومن ثم تعددت دعوات « المهدية » قبل « محمد أحمد بن عبد الله » وبعده ولكن ليس كمثله .

فبلاد سودان وادي النيل — العرب المسلمين — انفردت بوضع متميز عن البلاد العربية الإسلامية الأخرى ، فعلى قربها من بلاد العرب ، وصلتها الأبدية الحميمة بمصر ، وبرغم بكور دخول الإسلام فيها ، ظلت خارج حوزة الخلافة الإسلامية الراشدة منها والأموية ، والعباسية أو العثمانية التركية . ظلت على هامش ذلك العالم ولم تكن التغيرات والتيارات الفكرية والسياسية والاقتصادية المتجددة والمتكررة لتمسها إلا بقدر يسير ، وعلى طول ذلك الزمان فإن الأمة السودانية كانت — ولعلها لا تزال — في طور التكوين البشري والجغرافي والسياسي . واستمر ذلك الحال حتى مطلع القرن التاسع عشر .

لقد بقيت الممالك المسيحية في بلاد النوبة الممتدة من حدود مصر وحتى سنار في أواسط الجزيرة حيًا كميت ، منذ ظهور الإسلام وحتى القرن الخامس عشر لاتمثل إلا سلطة متآكلة مع الزمان ، وديانة لم يتح لها إلا القليل بين سكان ضفاف النهر ، بينما كان الإسلام واللغة العربية والقبائل العربية تنتشر وتغلب على المجتمعات النوبية والمجتمعات البدوية العربية والنوبية ، ومن

كانت تتصل به من الجماعات الزنجية في الغرب وفي الجنوب ، في بلد شاسع تمتد أرضه من المدار الشمالي وحتى خط الاستواء . نعم لقد حدثت تحولات كبيرة وخطيرة في القرن الخامس عشر وقبيله وبعده ، وأصبح الإسلام الكم والكيف ، وصارت له السلطة والدولة وأصبح له النفوذ السياسي ووجدت شريعة الله سبيلها للناس .

حدث ذلك عندما قامت الممالك الإسلامية في الغرب والوسط والشمال ، في تقلي والمسبعات وفي سنار التي امتدت سلطتها حتى حدود مصر وعرفت « بالسلطنة الزرقاء » . وكان كل ذلك لانتشار القرآن وازدياد العلماء والتوسع في الصلات المتنوعة مع العالم الإسلامي المجاور : في مصر وفي الحجاز وفي تونس وليبيا والمغرب . واستمرت تلك التغيرات تزيد من حركة أهل بلاد سودان وادي النيل في الداخل بعضهم ببعض ، فيزداد الإسلام انتشاراً وتزداد حركة انتشار اللغة العربية وما يتبعها من قيم ومفهومات وسلوك . ويبلغ ذلك الأجزاء الجنوبية منه . وبنفس القدر كانت حركة الاتصال بالخارج تزداد ، فكانت للسناريين أروقتهم المعروفة بهم في « الأزهر الشريف » وكان لهم حجيجهم المعروف بهم في الحجاز ، وكان لهم علماؤهم وشيوخهم وتجارهم المعروفون في عالمهم المجاور القريب منه والبعيد .

في ذات الوقت ظلت نتائج التحولات السياسية والاقتصادية والحضارية الناجمة **أولا** : من اشتداد المواجهة بين « دار الإسلام » و « دار الحرب » الأتراك العثمانيين وخلفهم العالم الإسلامي في مواجهة الكنيسة البابوية وخلفها كل دول الغرب المسيحي . **وثانيا** : ما نتج من تلك المواجهة من تحولات في طرق التجارة واكتشاف للمسالك البحرية وعلى رأسها اكتشاف أمريكا والدوران حول « رأس الرجاء الصالح » وصولا للهند ، **وثالثا** : تساقط بلاد العالم الإسلامي واضمحلال نفوذه — رويدا من الأطراف — في الغرب المسيحي إلى أن أصيب العالم الإسلامي في قلبه بسقوط الشام ومصر ومن قبلها بلاد المغرب لنفوذ فرنسا وبريطانيا .

ظلت نتائج كل هذا تنعكس على السودان في داخله ، إذ لم يكن ليلفت من أنظار الطامعين ، وكانت أوربا المسيحية قد أخذت تتوغل مكتشفة أسراره وإمكاناته عن طريق الرحالة والمسافرين والتجار والمبشرين . وتشقى إذ تجد الإسلام واللغة العربية ينتشران ، ويتحلّب لعابها لثروات عظيمة فيه ، واستراتيجية تملك بناصيتها موارد النيل مفتاح حياة مصر . ومع بداية القرن التاسع عشر كان محمد علي باشا قد أحكم قبضته على مصر وخطط لأسباب متعددة لغزو بلاد النوبة وكردفان ودارفور بعد أن عرف عنها الكثير .

كان في بلاد سودان وادي النيل من السعة والثروة والرجال الأشداء ما يغري والي مصر « محمد علي باشا » الطموح القادم من « البانيا » بعد ظهور « النظام الجديد » وكانت بلاد النوبة وسنار وكردفان ودارفور تعيش فترة هامة من تاريخها . صلاتها بعضها ببعض وصلاتها

بالخارج ، وحركتها نحو مناطق جنوب وادي النيل ، وكان الإسلام ينتشر . وكانت اللغة العربية تنتشر . وكانت أساليب حياة الناس تتأثر بذلك في كل شيء : قيمها ، نظمها ، توجهاتها ، سلوكها ، تعاملها وما إلى ذلك ، وكانت شعوب بلاد سودان وادي النيل وقبائلها ، تعيش فترة انطلاقة لتلاحم وانسجام وانصهار في بوتقة الإسلام والعروبة . وإذا بباشا مصر الذي سمع عن جيران مصر في الجنوب الكثير يعد العدة لغزو تلك البلاد .

لم تكن تلك البلاد قد عرفت الغزو كما عرفته مصر وجاراتها مرات ومرات من قبل . نعم كانت هناك الحروب القبلية ، بل كان في ذاكرة النوبة ذكرى « تهارقا » الذي طرد الهكسوس واحتل مصر ، وكان في ذاكرتهم ذكرى جدودهم رماة الحدق أيام « عمرو بن العاص » كما كان في ذاكرتهم غزوات « المأمون » و « المعتصم » ضد « البجاة » أيام « كنون بن عبد العزيز » حماية لمناطق التعدين في « وادي العلاقى » . كان في ذاكرتهم كل ذلك ، وكل ذلك انتهى إلى اتفاقات ، وكان عارضا ، عادت بعده قبائل بلاد سودان وادي النيل تعيش في حرية وفي سعة من الأرض ، ولم يكن ثمة أسباب لغزو الآخرين أو الغزو من الآخرين .

لم يقبل السودان فكرة غزو محمد علي ، فكتبوا مستنكرين مدافعين بأنهم مسلمون ، وبلدهم بلد مسلم ، دار إسلام لادار حرب للمسلمين فكيف يغزوهم جار مسلم ؟ وعندما بدأ محمد علي غزوه عام ١٨٢٠ لم يقابله النوبة والشايقية مستسلمين لعدده وعتاده ، قاوموه بأرواحهم في معارك كانوا يعلمون أنهم سيخسرونها معارك ، ويكسبونها استشهاداً ومستقبلا ، إذ يظل الثأر ويبقى الحق مابقي عنه المدافع . وهكذا كان الحال في بلاد « الجعليين » وفيما بعدها من البلاد حتى مناطق الجنوب . وما كان محمد علي وأتباعه ليصلوا إلى ما وصلوا إليه في السودان لولا غلبتهم عدداً وعدة ، وما كانوا بمستطيعين هم — أو من سمي بالمكتشفين لمنابع النيل من الأوربيين — أن يعرفوا ما عرفوه أو يبلغوا ما بلغوه لولا أن توسع محمد علي وتوسع أوربا صادف حركة واسعة لاكتشاف الذات واكتشاف الأرض في داخل البلاد . وبدهي أن سكان تلك المناطق لم يكونوا بحاجة إلى من يكتشف لهم بلادهم من الخارج . ولنا أن نرجع لسيرة « الزبير باشا رحمة » وأمثاله ومعاصريه لنعرف العمل الكبير والأساسي الذي قاموا به فيما تم من توسع وما سمي باكتشافات .

أحدث غزو محمد علي للسودان هزة بالغة في كيان مجتمعه المسلم الذي عرف للإسلام صفاءه وأمجاده ، وعرف للمسلمين زهدهم وورعهم وتقواهم وعزتهم وعزمهم وحسمهم . إنها بلاد أنارها نور القرآن وقد انتشرت خلاويه « وفقراه » في كل جوانب البلاد ، شرقاً وغرباً ، شمالا وجنوبًا ، إنهم شعب عمرت قلوبهم بالإيمان ، وحسن إسلامهم . وقام فيهم العلماء ، وقضاة العدالة ، ونبغ فيهم البلغاء ، والشعراء ، والمداح (مداح الرسول) ﷺ ، ومن قبلهم حفظة القرآن حتى أصبحت مواضع وأسماء قرى كثيرة في جهات السودان المختلفة تعرف بمن

بها « بالفقراء » أو « بخلاوي القرآن » أو « بالمسيد » (المسجد) ، حيث أصبحت أماكن استقرار العلماء وحفظة القرآن المواضع التي تعمر بالسكان والعمران .

كان ذلك الإسلام ، ثم كانت تلك الهزة العنيفة العميقة وما تبعها من حكم ظالم بغيض ، وحكام ما كانوا بأية حال يعكسون الصورة المتوقعة من الاسلام والمسلمين ؛ كان عهد محمد علي ببلاد سودان وادي النيل هو العهد الذي دخلت فيه تلك البلاد في منظومة بلاد الشرق الأدنى لتصبح بطريق غير مباشر جزءاً من الأمبراطورية العثمانية المتحضرة ، وبتلك الصورة وجدت بعض المداخل للعالم الحديث مثل وسائل الاتصال السلكية ، ومبادئ التعليم الحديث عمل فيه (رفاعة رافع الطهطاوي) ، وبعض المحاصيل الزراعية الجديدة مثل القطن ، مع بعض وسائل الزراعة الحديثة . لكن كانت مع ذلك السخرة ، والتجنيد الإجباري ، وأساليب من العسف والتعذيب مثل « الخازوق » وكانت الضرائب الباهظة . وجاءت مع جنود باشا مصر ، وهي أخلاط عجيبة من بقايا المماليك والفلاحين المجبرين ، جاءت معهم أشكال غريبة من شذاذ الآفاق وحثالة أوربا الغربية من غربها ووسطها وجنوبها ، من الرعايا العثمانيين وغيرهم من الأوربيين . لم يكن غريباً أن يحسب الكثيرون أنها علامات آخر الزمن ، ولابد أن يزول ذلك الكابوس عن العالم الإسلامي المنهزم كله بظهور « صاحب الوقت » « المجدد » « الختم » ، « القطب » أو « المهدي » . لم يكن ذلك التوقع قاصراً على السودان بل شمل العديد من المسلمين بيضان وسودان .

(هـ)

في تلك الظروف ، في قرية وادعة من قرى « دنقلا » في شمال بلاد السودان ، في جزيرة « لبب » « المعروفة بجزيرة الأشراف » ، في يوم ٢٧ رجب من عام ١٢٦٠هـ الموافق ١٢ من اغسطس عام ١٨٤٤م ولد « محمد أحمد بن عبد الله » لأسرة متوسطة الحال » ذات مكانة دينية معروفة مرموقة . عرفت الجزيرة « بجزيرة الأشراف » قبل مولده وهو منها ومنهم ، فقد كان من حفدة حاج شريف المنتسب لآل البيت . كان والده يعمل في صناعة المراكب بدنقلا ، ثم هاجر بأسرته بعد مولد محمد أحمد جنوباً إلى منطقة كرري (شمال أم درمان) ، وما لبث أن توفى الوالد ولحقت به الوالدة . وبقي محمد أحمد في رعاية إخوته الكبار . عندما كبر ليبلغ سن التعليم أظهر ميلا شديداً لتعلم القرآن فانتظم في « خلاوي كرري » و« الخرطوم » يتعلم القراءة والكتابة ، ومبادئ العبادة وطرقها ، ويحفظ القرآن .

يقول عنه الدكتور أبو سليم : إنه « تعلم العلوم الفقهية على يد الشيخ « الأمين الصويلح » بالخرطوم ثم توجه إلى بربر حيث قصد الشيخ محمد الضكير (الخير) « عبد الله خوجلي » بالغبش وأكمل على يديه حظه من العلوم النقلية . وقد أظهر محمد أحمد في هذه الفترة إخلاصاً

شديداً للدين ، واشتهر بالزهد والتقوى والورع ، والولاء الخالص للأستاذ ، كما أظهر تبرما مبكرا من علاقة المشايخ بالحكومة ، وقبولهم الجرايات التي تنفقها عليهم . كان يرى أن ذلك مال حرام ، يجبى بلا شريعة تسنده ، وبأسلوب من العسف شديد .

أحب العلم ، الزهد ، التقوى ، الشخصية الجذابة الذكية ، وقد مازته جبهته العريضة ، وعيناه النفاذة ، وسنونه المفلجة ، وابتسامته الدائمة المشرقة ، وشخصيته الأخاذة . كان العديدون ممن ساندوه عند إعلانه أنه المهدي وبدء جهاده وقيام دولته من مشايخه وزملائه في الدراسة . نذكر من هؤلاء أستاذه محمد الخير ، وقائده « عبد الرحمن النجومي » .

وفي ١٢٧٧/ ١٨٦١ ينتقل « محمد أحمد » من بربر إلى جماعة الشيخ « محمد شريف نور الدايم » أحد أعمدة الطريقة السمانية وتقوى صلاته بشيخه وأستاذه « محمد شريف » الذي يبلغ من المكانة عنده ما يجعله خليفة في عام ١٢٩٢ / ١٨٧٦ ، ويرفع له راية ويأذن له بالتجوال في البلاد وإعطاء العهود للمريدين . لكن سرعان مادب خلاف بينه وبين شيخه محمد شريف إذ لم يرض عما لازم ختان أبناء الشيخ من احتفالات ورقص وطرب ، واختلاط بين النساء والرجال . وما كان هو ممن يخفون ما يرون فيما يمس شرع الله ، فأظهر استنكاره لذلك ، وكانت الجفوة بينه وبين شيخه محمد شريف . وتلك كانت خلفية انتقاله للجزيرة « أبا » في النيل الأبيض حيث أقام له خلوة عام ١٢٨٦هـ ـــ ١٨٧١م ، ومعها اتصاله بالشيخ القرشي « ود الزين » أحد شيوخ السمانية الذي زوجه ابنته « النعمة » التي انجبت له ابنه « عليًّا » وقال عنه الشيخ القرشي فيما يروى عنه « أديته بنتي وفرسي وأنا موعود فرسي ده يركبه المهدي ، وشيخته وأديته الإجازة » . وقد توفي الشيخ القرشي عام ١٨٨٠م وعمل صهره وتلميذه « محمد أحمد » ـــ الذي أصبح ممن يشار إليهم بالبنان علما وزهدا وغيرة على الدين ومكانته بين شيوخ السمانية ـــ على بناء قبة على ضريحه وأثناء البناء التقى به من أصبح مساعده الأيمن وخليفته عبد الله التعايشي وهو أحد أبناء شيوخ السمانية المعروفين .

هكذا ولد ونشأ محمد أحمد على القرآن والفقه والتصوف الزاهد المجاهد ، في جو كان فيه من التغيير والتباعد عن الجادة والتوقع للتجديد والتغيير ما جعل الكثيرين يحثون في ترقب ولهفة عمن اتفقوا في نفوسهم وعقولهم أنه صاحب الوقت الذي لابد أنه آتٍ . وكان محمد أحمد نفسه من هؤلاء . وقد ورد أن الحديث عن مهدي بدنقلا كان قبل مولده . وقد لاحظنا كيف أنه روض نفسه على التقوى والزهد والجد والجادة وكيف أنه لم يكن يجامل فيما يراه حقا حتى مع شيوخه وأقرب الناس إليه . وقد أصبح الآن شيخاً معروفا مشهوداً له بالورع والتقوى ، ودماثة الخلق ونفاذ البصيرة ، والجرأة في حق الله . ولا بد لنا أن نرصد له مع هذا حركته الدائبة . في مراكز الثقل في شمال السودان ووسطه آنذاك متعلماً ومعلماً ، مريداً وشيخاً .

بدأ حياته بدنقلا (في الشمال) ثم انتقل إلى منطقة أم درمان والخرطوم (شمال الوسط) ومنها إلى بربر(جنوب الشمال) ثم إذا به يتجه إلى الجزيرة في « أبا » (الوسط) ومنها يقوم بزيارة ناجحة إلى كردفان في الغرب في عام ١٢٩٨هـ ــ ١٨٨١م ، وكان في هذا التجوال ينتقل بين الفقهاء وحفظة القرآن ورجال الطرق الصوفية ، يعرفهم ويعرفونه ، ويباشر دعوته إلى إصلاح النفوس والسلوك ، ونبذ الدنيا والتوجه الخالص إلى الله . لقد أصبحت « أبا » مركزه ومركز دعوته . وفي عام ١٢٩٨هـ في ربيع الآخر منه الموافق مارس ١٨٨١ ، أعلن محمد أحمد بن عبد الله أنه المهدي . وكان ذلك ما توقعه وأظهره الكثيرون من أتباعه الذين بايعوه في التو واللحظة ، كانت هناك مقالة صهره المتوفى ــ المرحوم الشيخ القرشي « ود الزين » وكانت هنالك تصاريح « عبد الله التعايشي » الذي صاح أنه المهدي أول ما رآه وغيرها كثير .

قامت دعوته إلى التوحيد والزهد والتقشف في الحياة والشدة مع الكفر والبدع . بدأ حياته الفكرية متصوفاً متطرفاً ، وهكذا كانت الدعوة المهدية أول عهدها ، ولكنه سرعان ما اتجه إلى التخلص من كل الطرق ، وحتى المذاهب ، ساعيا لخلق مجتمع مسلم كأيام الرسول ﷺ ، الرسول الذي كان يُرجع كل دعوته إلى رؤيته وحضرته . وهكذا ألغى كل شيء إلا الكتاب والسنة ، وتوالت منشوراته ورسائله وأحاديثه لتكوين مجتمع مسلم جديد يقوم على الكتاب والسنة ، ودولة تحكم بشرع الله ، وتحيي النظم الإسلامية في الإدارة والقضاء والجيش وبيت المال ، وتوالي الجهاد وتقوم به لإحقاق الحق وإعلاء كلمة الله .

وكما كانت دعوة « ابن فودي » في مطلع القرن دعوة علم وإصلاح ، اضطرت لتحمي نفسها وتقيم دولتها بإعلان الجهاد حماية لنفسها ، وتحقيقاً لمعناه ، وجد المهدي نفسه مضطراً لمواجهة الحكام وأتباعهم بإعلان الجهاد دفاعاً عن دعوته وعقيدته ومجتمعه . إنه بدأ بالدعوة والتبشير فبادؤوه بالنكران والسخرية والحرب . وإذا به يواجه الحكم التركي المصري في السودان ، والذي استعان بكبار مرتزقة الامبراطورية البريطانية أمثال « هكس » ، وبعده « غردون » ، وبينهم العديد من الحملات التي قادها الأتراك المصريون . وكان نصر الله له عزيزا وفتح الله له مبينا .

كانت أول المعارك ومفتاح النصر في « أبا » في ١٦ رمضان عام ١٢٩٨هـ الموافق ٣ أغسطس ١٨٨١هُزم فيها القائد التركي المصري « أبو السعود » شر هزيمة . وهاجر المهدي إلى « قدير » بكردفان ليبتعد عن السلطة ويحتمي بأتباعه في مكان آمن . ومن هناك امتدت دعوته إلى بحر الغزال بين أكبر القبائل الجنوبية قبيلة « الدينكا » ، وإلى جنوب كردفان . وكانت الهجرة لقدير للاحتماء بجبل « ماسا » وقد روى المهدي أن حركته إليه إنما كانت هجرة أمره بها في رؤية رسول الله ﷺ .

وفي قدير تتابع أتباعه وافدين إله يبايعونه ، وينتظمون في سلك دعوته ، مستعدين لمواجهة ما توقعوه من تجريدات عسكرية لم تنقطع ، ولم تفلح أي منها في مواجهته مما زاده مكانة ومنعة وقوة . ولقد انشغلت الحكومة التركية المصرية بثورة « عرابي » عام ١٨٨٢ . وكان في ذلك مجال نظم المهدي فيه جيوشه على قيادات ثلاث (الراية الزرقاء) تحت قيادة « عبد الله التعايشي » خليفته من بعده وقوتها من رجال غرب السودان ، (الراية الخضراء) وعلى رأسها « علي الحلو » وتمثل رجال الجزيرة ثم (الراية الحمراء) وقائدها « محمد شريف » وتمثل مجموعات النيل . وتيمنا بالرسول ﷺ وتقليداً له سمى نفسه خليفة رسول الله وسمى حلفاءه بأصحاب الرايات كفعل الخلفاء الراشدين .

ولا نريد أن نقف كثيرا عند الحملات والمعارك العسكرية ، ولكننا لابد أن نشير وبسرعة إلى توالي الانتصارات المذهلة التي مهدت الطريق للزحف على الخرطوم وقتل « غردون » ، ذلك الحدث الجلل الكبير الذي أنهى عهد التركية المصرية في السودان . كانت « أبا » المفتاح في بدء الدعوة ، ولكن معركة « شيكان » التي أبادت حملة « هكس » باشا الكبيرة كانت بحق بداية النهاية للعهد التركي ، وكانت الدافع وراء سياسة الإخلاء التي بُعث من أجلها « غردون » ولكن غروره وتخيلاته جعلته يحيد عنها فيلقى حتفه مقتولا في الخرطوم . كانت هزيمة هكس في « شيكان » في ٥ نوفمبر ١٨٨٣ . كان هكس يتبجح بأن جنده قادر على صد السماء بأسنة رماحه ، وبصد الأرض بأقدام جنده ، وتبارك الذي بيده الملك ، هُزم جيشه شر هزيمة ، ومات ميتة الكلاب . في العام نفسه ثار الشرق بقيادة « عثمان دقنة » فأخذ « طوكر » و« سنكات » . و « عثمان دقنة » هو من حطم تشكيلة المربع الاسكتلندي وألحق هزيمة نكراء بالبريطانيين ، وقد أثبت ذلك الشاعر كبلنج في قصيدته (الغزى وزى) وهكذا مهد الطريق للزحف على الخرطوم وحصارها .

بدأ الزحف من الغرب نحو العاصمة في مقدمته « أبو قرجه » و « عبد الله النجومي » ومن ورائهم المهدي ، الذي كان من قبل زحفه للخرطوم قد تلقى بيعات زعماء الدينكا ، وبعث للسنوسي « بجغبوب » بجنوب ليبيا عارضا عليه البيعة والخلافة . وكان شمال السودان قد ثار معلنا بيعته وولاءه للمهدي والمهدية ، وفي ٢٦ يناير سقطت الخرطوم وقتل « غردون » واحتز رأسه فيما أصبح الآن قصر الشعب بالخرطوم في ٢٦ يناير ١٩٨٥ ، وعادت الحملة التي أتت لإنقاذه مهزومة مكسورة الجناح .

كانت هزائم مصر التركية والتي كانت تسندها الإمبراطورية البريطانية كبيرة ومثيرة ، وكان لانتصارات المهدي على هذا التحالف الشيطاني المفروض على الأتراك والمصريين صدى عميق في نفوس المسلمين والاستعمار والحركة الصليبية على السواء . وكان لكل هذا صدى عميق

في مستقبل السياسة البريطانية والحركة الصليبية التبشيرية في العالم الإسلامي كله ، ولاسيما في العالم العربي والعالم الإفريقي .

أما بالنسبة للمهدي المنتصر ــ عليه رحمة الله ورضوانه ــ فقد آثر ألا يسكن مساكن الذين ظلموا في الخرطوم ، فسار بناقته من أبي سعد إلى أم درمان ، وحيث حطت رحالها بنى مسكنه ومسجده ، متيمنا بذلك بما فعله الرسول ﷺ ، وآنذاك بدأت دولته ببلاد سودان وادي النيل ، فأخذ يتصل بالخارج بمصر ، وبالحبشة ، وبمراكش وفاس بالمغرب ومن قبلهما بالسنوسي بليبيا ، وبمالي ، وببلاد الشنقيط ، وصوكوتو عاصمة الخلافة العثمانية تحت حفدة عثمان بن فودي ، ولعله من المهم هنا أن نذكر أن وفداً من الحجاز قد زار المهدي ، وأنه اعتمد عثمان نور الدين والي الحرمين عاملا له في الحجاز . وكان معروفاً أنه لم يود قتل « غردون » وإنما سعى بدعوته لدعوته ، فلما أبى وتكبر خطط لارتهانه ، ولكن صلف « غردون » وغروره وذعره أودته موارد الحتف .

لم يبق المهدي طويلا بعد فتح الخرطوم ، ولكنه رتب خلافته من بعده ، ودخل في خلوة ثم داهمة المرض (ولعله الملاريا) لينتقل إلى مثواه في ٨ رمضان ١٣٠٢هـ الموافق ٢٢ يونيه ١٨٨٥ عليه رحمة الله ورضوانه . وانتقل الأمر من بعده للخليفة عبد الله ، وذلك جزء آخر من تاريخ المهدية .

ما الحصاد الحقيقي لهذه الحركة التي ما كانت إلا كلمح البصر في عداد التاريخ ؟ إن المهدي ولد عام ١٢٦٠ ، وبدأ دعوته عام ١٢٩٨ وتوفى عام ١٣٠٢هـ . عمره كله حوالي ٤٢ عاماً ، وعمر دعوته التي حقق فيها كل تلك الانتصارات ، والتي لم تكن تعني أي شيءأقل من هزيمة الامبراطورية البريطانية ولو إلى حين ، لم يزد عن خمس سنوات ، وكانت تمثل انتصارا للمقاومة الفكرية والدينية والعسكرية على الهجمة الصليبية الاستعمارية على بلاد الإسلام وبلاد العالم الثالث كلها ، وكانت لأحداثها صداها في تاريخ مقاومة الاستعمار والصليبية على نطاق العالم الإسلامي كله على وجه الخصوص . وإذا كنا قد أشرنا من قبل إلى الصلة بين المهدية وبين حركة « دان فودي » بغرب إفريقيا فإن آثار حركة المهدية شملت نيجريا وتشاد وبرنو وبلاد حوض النيل ومصر والصومال والحبشة وحتى أندونيسيا .

بالنسبة للسودان كانت المهدية بلا شك الحركة التي وحدت بلاد السودان توحيدا إيجابياً ــ بعد أن مدت التركية المصرية سلطاتها عليها ــ اعتماداً على ما كان قد بدأ من الداخل سياسياً وجغرافياً . والمهدية هي التي نجحت في أن تبني على بقايا الممالك والسلطنات والمجموعات القبلية المسلمة وغيرها ــ في سنار وفي الغرب والشرق وفي جنوب السودان ــ كياناً سياسيا تحت راية المهدي ، كيانا وقف مدافعاً عن عقيدته وأرضه ضد أعتى الإمبراطوريات في القرن

التاسع عشر والقرن العشرين . هذا من زاوية المقاومة ضد الصليبية والاستعمار . كما أن حركة المهدية من هذه الزاوية كانت الذكرى الملهمة الحية في ضمير الشعب المسلم وغير المسلم في بلاد سودان وادي النيل ، التي جعلته يقاوم الاستعمار بالدم والكلمة والشعار إلى أن أزاله الله .

أما من زاوية الإسلام فإن حركة المهدي كانت حركة توحيد وتجديد في جوهرها ومرماها ، والمهدية هي التي نشرت لواء الشريعة على أرض سودان وادي النيل ، من شماله وحتى جنوبه وإن ماتم في السودان الآن من تطبيق للشريعة إنما هو سير على درب بدأه « محمد أحمد بن عبد الله المهدي » . ولقد كانت حركته في سيرتها وسيرها سريعة موفقة في تحريك قبائل السودان المختلفة للانصهار والتمازج والاختلاط تحت راية الإسلام وفي روح الجهاد .

ولقد خلَّف المهدي عليه رضوان الله من المنشورات والرسائل والأدعية الدينية وحسن السيرة وعطر الذكرى ما يؤكد عمق علمه وصدق توجهه وصفاء نفسه وحدة عقله . وإن آثار تعاليمه التي لاتزال تنتشر بين أنصاره وغيرهم من المسلمين بالسودان تميزهم بالكثير الخير بين المسلمين . كما أن المهدية كفكر وواقع كانت السبب المباشر في إذكاء روح التأليف شعرا ونثرا ورجزا ورسائل وكتبا . وإن مجموعة منشورات المهدي وراتبه تشكل مع كل هذا ثروة ضخمة لاتزال تنتظر الدراسة العميقة الواعية الهادفة . وإن عمل المهدية في تاريخ بلاد سودان وادي النيل ، بل في تاريخ وادي النيل كله ، وبلاد حوض النيل كلها أكبر من أن تحصره مقالة عابرة أو بحث متعجل مثل هذا .

* * *

المـراجـع العربيـــة

١ ــ شيخو أحمد سعيد جلادينش **حركة اللغة العربية وآدابها في نيجيريا** : القاهرة ١٩٨٢ .

٢ ــ محمد إبراهيم أبو سليم **الحركة الفكرية في المهدية** بيروت ١٩٨١ .

٣ ــ محمد أحمد المهدي (الإمام) **الراتب** دار الوثائق المركزية ، الخرطوم ، مطبوع .

٤ ــ محمد أحمد المهدي (الإمام) **المنشورات** دار الوثائق المركزية (مخطوطات) .

٥ ــ محمد بلو بن عثمان بن فودي **إنفاق الميسور في تاريخ التكرور** ــ لندن ١٩٥٧ ــ القاهرة ١٩٦٤ .

٦ ــ محمد بلو بن عثمان بن فودي **الرباط والحراسة** ــ مخطوط ، جامعة أحمد بلو زاريا نيجيريا .

٧ ــ محمد بلو بن عثمان بن فودي **انظر عثمان سيد أحمد إسماعيل** ــ أدناه فهرست .

٨ ــ محمد عثمان مكي الميرغني **مجموعة النفحات الريانية** ــ القاهرة ١٩٥٠ .

٩ ــ محمد نور ضيف الله **طبقات ود ضيف الله** ــ تحقيق د . يوسف فضل حسن ــ دار النشر جامعة الخرطوم .

١٠ ــ مصطفى محمد محمد **الإسلام والنوبة** ــ القاهرة ١٩٦٠ .

١١ ــ مكي شبيكة **السودان عبر القرون** ــ القاهرة ١٩٦٤

١٢ ــ عبد الله علي ابراهيم **الصراع بين المهدي والعلماء** ــ الخرطوم ١٩٦٨ .

١٣ ــ عثمان سيد أحمد إسماعيل **الختمية والأنصار** ــ الخرطوم ١٩٧٠ .

١٤ ــ عثمان سيد أحمد إسماعيل **فهرست المخطوطات العربية (نيجيريا)** الخرطوم ١٩٨٤ .

١٥ ــ عثمان سيد أحمد إسماعيل **المديح خليفته ومحتواه التاريخي** ــ م . د . س الخرطوم .

١٦ ــ عثمان بن محمد بن فودي **بيان وجوب الهجرة على العباد وتحريم موالاة الكفر** ــ دار النشر ــ جامعة الخرطوم ١٩٧٨ .

١٧ ــ عثمان بن محمد بن فودي **تحذير الإخوان من ادعاء المهدي الموعود آخر الزمان** ــ مخطوط جامعة أحمد بل زاريا نيجيريا .

١٨ ــ عثمان بن محمد بن فودي **تنبيه الإخوان على جواز اتخاذ المجالس لتعليم النسوان علم فروض الأعيان ــ مخطوط جامعة أحمد بللو زاريا نيجيريا .**

١٩ ــ عثمان بن محمد بن فودي **انظر عثمان سيد أحمد إسماعيل أعلاه** ــ فهرست .
٢٠ ــ يوسف فضل حسن **دراسات سودانية** ـالخرطوم ١٩٧٥ .

1 - M.A.AI - HAJJ : **THE MEANING OF THE SOKOTO JIHAD** . SEE Y.B. USMAN (BELOW) .
2 - O.S.A.ISMIL : **HISTRIOGRAPHICAL TRADITIONS OF AERICAN ISLAM** SEE T.RANGER (ED) EMERGING THEMES OF AFRICAN HISTORY LONDON 1968
3 - O.S.A.ISMAIL : **SOME REFLECTIONS ON THE LITERATURE OF THE JIHAD AND THE CALIPHATE** . SEE - Y.B.USMAN (BELOW)
4 - LAST, M.THE SOKOTO CALIPHATE. IBADAN 1967.
5 - SMITH, ABDULAH : **THE CONTEMPORARY SIGNIFICANCE OF THE ACADEMIC IDEALS OF THE SOKOTO** SEE Y.B.USMAN (BELOW)
6 - USMAN Y.B.(ED) **STUDIES IN THE HISTORY OF THE SOKOTO CALIPHATE** ZARIA 1979.
7 - USMAN M.BUGAJE : A COMPARTIVE STUDY OF THE MOVEMET OF DAN FODIO AND AL.MAHDI (THESIS) U.OF KHARTOUM - 1981.

مناقشــة

الأستاذ فهمي هويدي

لبحــث

الشيخ عثمان بن محمد ابن فودي
والشيخ محمد أحمد بن عبد الله المهدي
وآثارهما

للدكتور عثمان سيد أحمد إسماعيل

الواقع أن الأخ الدكتور « عثمان » أوقعني في أكثر من إشكال ، الإشكال الأول أنه قدم لنا عرضاً تاريخياً ، ليس فيه مجال واسع للمناقشة ، الإشكال الثاني أنه أحال نصف بحثه إلى « الدكتور يوسف فضل » وبالتالي لأعرف من أناقش ، أناقشه هو أم « الدكتور يوسف فضل » ؟ الإشكال الثالث أنه تجاوز وقته فأخذ من وقتي .

ومع هذا ، فأنا أشاركه في كثير مما قاله ، وبالأخص عدم رضاه عن هذا البحث ، لأنه في الحقيقة قراءة للتاريخ . ونحن نعرف أن هناك منهجين ، إما أن نقدم عرضاً للتاريخ ، وإما أن نقدم تقييماً واستخلاصاً للدروس من هذا التاريخ . وأحسب أن « الدكتور عثمان » اختار المنهج الأول ، فقدم لنا عرضاً أكثر مما قدم لنا تقييماً ، وهذه الحقيقة المنهجية ، تسري على بعض المعالجات التي طرحت في هذه الندوة وخصوصاً فيما يتعلق بعدد من القضايا الهامة التي أكتفى في طرحها بالعرض والسرد دون التقييم واستخلاص النتائج والدروس ، فضلا عن أن بعضها قدم إلينا تاريخاً نعرفه جميعاً ، أو مايمكن أن نسميه ماهو معلوم من التاريخ بالضرورة .

فمثلا : كنت أحب أن يشير إلى موضوع المهدية بوجه أخص ، لأننا بحاجة إلى أن نعرف الحجم الحقيقي لإسهام الحركة المهدية ، سواء من حيث كونها حركة إسلامية أو حركة وطنية ، أو حركة توحيدية وخصوصاً أن « الدكتور عثمان » وصفها في آخر فقرات ذكرها أمامنا بأنها حركة توحيدية تجديدية . وهذه مسألة في الحقيقة تحتاج إلى مراجعة ، فلا بد أن نناقش المهدية ، ليس من مدخل الأبيض والأسود أعني هل هي خير كلها أو شر كلها بل نحاول أن نعرف مافيها من هنا وذاك .

لقد قرأنا فيما نسب للإمام المهدي أنه قال : أخبرني رسول الله ﷺ بكذا وكذا وكذا ، هذه وأمثالها من المسائل والممارسات والمعتقدات إذا قوّمناها بالتقييم الإسلامي الموضوعي والمحايد فسنجد فيها جنوحاً يحتاج إلى تقويم ، وأحسب أن أخي « الدكتور عثمان » يعرف

أكثر مني عن عقائد المهدية تلك التي تحتاج إلى مراجعة ، وخصوصاً ، تلك الآثار التي ترتبت على بث أفكار سادت في السودان على أيدي خلفاء المهدي ، بل في عهد المهدي عندما لجؤوا إلى تكفير الذين عارضوهم ، ثم الممارسات التي حدثت بعد وفاة المهدي على أيدي خلفائه ، وأظن أن كثيرين من اخواننا السودانيين يذكرون وقائع (فأنا أبحث عن ألفاظ مخففة بقدر الإمكان) لاتشرف الحركة المهدية على أي حال ، وأيضاً ممارسات تجاه جماهير المسلمين ، الذين لم يعبِّروا سواء عن انتمائهم أو عن ولائهم للحركة المهدية .

وإني ألفت النظر إلى هذا التردد تجاه مراجعة تجاربنا الهامة التي نعيشها ، لأن ذلك يقودنا إلى حقيقة ، وهي أن نصبح غير قادرين لا على قراءة الماضي قراءة موضوعية ومحايدة وناقدة ، ولا على قراءة الحاضر قراءة موضوعية وناقدة ، الأمر الذي يلقي كثيراً من الظلال على طريقنا وفهمنا وتقييمنا لمختلف الحركات الإسلامية المعاصرة .

ومع هذا فالبحث أو الورقة التي قدمها « الدكتور عثمان » تثير عدة أمور . النقطة الأولى هي كيفية المراجعة ، وحاجتنا الحقيقية إلى نظرة نقدية موضوعية لاانحياز فيها ولا انفعال ، تجاه الحركات الإسلامية المعاصرة ، وهذا ماأظن أننا مازلنا نفتقده إلى الآن ، فنحن نريد أن نعرف أين الصواب ؟ وأين الخطأ ؟ ولا يمكن أن نركز على الصواب فقط سواء في دراستنا لممارسات الحركة الإسلامية في الهند ، أو حركة الإخوان المسلمين ، أو الحركة المهدية الخ .. وإني اذ أطالب بدراسة الخطأ إلى جانب الصواب فذلك لأن الخطأ يعلمنا ويفيدنا وينير لنا ويفتح الطريق أمامنا لنعرف الكثير ، ونصحح الكثير من مسارنا .

القضية الثانية : حول كيفية قراءة التاريخ . بمعنى أن التاريخ ليس أحداثا منفصلة أو لا علاقة لها ببعضها ، وأتفق مع أخي « الدكتور عثمان » في قوله : إنه في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر كانت هناك عدة حركات إسلامية هي في الوقع ردود أفعال ، فمثلا كانت « الوهابية » رداً على حالة التفسخ والبدع التي ظهرت في الجزيرة العربية وكانت المهدية رد فعل أيضاً ، وكذلك حركة عثمان بن فودي كانت رد فعل ، والسنوسية كانت أيضاً ، هذه الحركات كلها كانت محاولة للرد الإسلامي على عديد من صور التفسخ سواء العقدي ، أو المقاومة الوطنية ، أو الرد على قوى الاستعمار التي غزت أطراف العالم الإسلامي .

وهناك علاقة لابد أن تستوقفنا في هذه الحركات ، بدءاً بالحركة الوهابية في الجزيرة العربية وانتهاء بالحركة المهدية والسنوسية ، ومروراً بحركة ابن فودي لأن هذه كلها كما ظهر من البحوث والمناقشات قد تماثلت تماثلا شديداً في الأفكار ، وهذا التماثل لايمكن أن يكون مجرد توارد خواطر .

ويجب أن ندرس الأثر الذي كان للحج في تلاقي الأفكار وانتشارها في العالم الإسلامي ، إن الحج جعل من المسلمين رحالة فعندما كانوا يقطعون الطريق من أعماق أفريقيا إلى الجزيرة العربية ، يمرون عبر شمال أفريقيا وعبر مصر ، وكان للقادمين من آسيا إلى الجزيرة العربية رحلة يمرون خلالها بعدد من البلاد ، هذه الرحلات جعلت من المسلمين ـــ بطبيعة الحال ، أو بالضرورة ـــ قوماً يرحلون من مكان إلى مكان ، وأتاحت فرصة كافية لتلاقح أفكار كثيرة ، وأظن أن الصدى الذي ترتب على، أو أحدثته، الحركة الوهابية، بالدرجة الأولى تمَّ أكثره عبر مواسم الحج .

ولقد وجدت في « صنعاء » كتاباً أصدره يمانيون عن الحملة الفرنسية على مصر ، وتبين منه أن المسلمين في اليمن ، لم يعرفوا بأنباء الحملة الفرنسية على مصر ، مع أنها كانت في آخر القرن الثامن عشر ، إلا عبر موسم الحج ، ولم يسمعوا عنها إلا من الحجاج القادمين ، وبذلك كان الحج فرصة حتى لنشر الأخبار إلى جانب الأفكار ، ولقد كان للحج أثر هام في الحياة الفكرية للمسلمين . وهذه مسألة تحتاج إلى رصد لمعرفة أثرها في مسار العديد من الحركات الإسلامية والأفكار التي انتشرت في العالم الإسلامي ، وتأثيرها وتأثرها ببعضها .

ثم إن الأخ « عثمان » قد اعتبر المهدية حركة تجديدية ، وهذه نقطة أخرى نرجو أن تستنير فيها بتقييم محايد وموضوعي ، لأنني أحسبه قد قدم لنا وجهاً مشرقاً ومضيئاً ومفيداً ، ولكنا سنظل بحاجة إلى أن نرى الوجه الآخر من باب الإنصاف والحيدة والمعالجة الموضوعية .

⁂